

# مستقبل مختلف: حين يتخيل الفلسطينيون

كتبته [يارا هوري](#)

”علينا أن نحكي حكايات مختلفة عن تلك التي تُغسلُ أدمغتنا لتصديقها... تذكروا أن وجود عالمٍ آخر ليس ممكناً وحسب، بل هو في طريقه للتحقق.“

- أرونداتي روي<sup>1</sup>

## ملحة عامة

**توضّح** الباحثة والمفكرة وازياتاوين في كتاباتها عن الاستعمار الاستيطاني في جزيرة السلحفاة (أي الولايات المتحدة وكندا) بأن من الصعب تخيل الحياة خارج إطار الاستعمار في سياقٍ ”آخرِ قوّةٍ عظيمة على وجه الأرض.“ ومن الصعب على الفلسطينيين أن يتخيلوا مستقبلاً لا تكون فيه النكبة المستمرة سمّةً في حياتهم اليومية. فكثيرون منهم، على سبيل المثال، يستصعبون تخيل مستقبل تتحقق فيه العودة وينال فيه اللاجئين والفلسطينيون جميعاً حقوقهم الكاملة في موطنهم التاريخي. وتدعو وازياتاوين الشعوب الأصلية لتفكر فيما وراء الحدود الزمانية والمكانية:

في ظل عملية المحو المستمرة، وجد الفلسطينيون أنفسهم في مواجهة إنكار ماضيهم ومستقبلهم. وهم عالقون في حاضر سرمدٍ تُحدّد فيه القوّة الاستعمارية الاستيطانية، إسرائيل، حدوده الزمانية والمكانية. يُسمي الفلسطينيون غالباً هذه الحالة ”النكبة المستمرة“ التي لا يتوقف فيها التهجير والطرْد والتدمير، ويستعصي على الفلسطينيين التفكير في المستقبل، حيث ينصبُّ همُّهم على تدبير أمور معيشتهم في هذا الحاضر المتدهور باستمرار، ولا سيما داخل فلسطين.

يتناول هذا التعقيب الاستعمار وتخيّل مستقبل مغاير، ويتتبع التصورات المستقبلية التي تنطوي على قمع الفلسطينيين. ويختّم بطرح أمثلة تُبين أن مخيلة الفلسطينيين، بالرغم من إخضاعهم وقهرهم، لا تزال نشطة، ويدعو إلى بناء مستقبل على رؤى الفلسطينيين الجمعية.

## الاستعمار وتصورات الواقع

**كتب** فرانز فانون أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر ”استند دائماً على الافتراض بأنه باقٍ للأبد“ وأن ”المنشآت التي شيدتها، كالموانئ البحرية والجوية، وحظر اللغة العربية“ جميعها أعطت انطباعاً باستحالة تفكك الاستعمار. في الواقع، إن ”كل مظهر من مظاهر الوجود الفرنسي كان يُعبّر عن تجذّر مستمر في الزمان وفي مستقبل الجزائر، وكان دائماً رمزاً للاضطهاد الأبدي.

وعلى نحو مشابه، يُحدث النظام الإسرائيلي ”وقائع على الأرض“ بمواصلة تشييد المستوطنات في الضفة الغربية، ومصادرة الأراضي في الجهة الأخرى من الخط الأخضر، وتغيير الحدود بشكل دائم لما هو مقبول كأرضٍ إسرائيلية لصالح النظام الاستعماري الاستيطاني.

وهكذا تسعى المشاريع الاستعمارية الاستيطانية إلى التحكم في تصورات الواقع لفرض حالة ركود دائمة أو تطبيع على الشعوب الأصلية والمستعمرة. فيصير تخيل مستقبل مغاير لهذه الحالة عملاً متمرّداً وراذلياً، وصعباً بامتياز.

## ”تسعى المشاريع الاستعمارية والاستعمارية الاستيطانية إلى التحكم في تصورات الواقع لفرض حالة دائمة من الوجود الظاهري أو الركود المطبّع على الشعوب الأصلية والمستعمرة.“

إن من الضرورة مِمَّا كان أن نعي، كشعوبٍ أصلية، شدة الوضع العالمي، وأن ندرك مغالطة عدم منعة الحضارة الصناعية، وأن نشرع في تخيل مستقبل ما بعد الإمبراطورية وما بعد الدول القومية الاستعمارية التي أبقنا في حالة خضوع.

**يصف** أرجون أبادوراوي التخيل بأنه ”مجالٌ منظم من الممارسات الاجتماعية، وشكلٌ من أشكال العمل... وصُربٌ من التفاوض بين مواقع الفاعلين (الأفراد)، ومجالات من الإمكانية متعارف عليها عالمياً“. أي أن التخيل، بعبارة أخرى، هو مزيج من التصورات الفردية والجماعية لِمَا هو ممكن. وهذا هو العنصر الجمعي الذي يميز التخيل عن الخيال. ويبين أبادوراوي هذا التمييز:

تحمل فكرة الخيال بالضرورة فصلَ الفكر عن العمل والفاعل، وتسمّها أيضاً صبغةً خاصة وفردية. أمّا التخيل فيتسم بحس إسقاطي... وبوسعه حين يكون جمعيّاً أن يكون الباعث على العمل. والتخيل في أشكاله الجمعية إمّا يستحدث أفكار

1. Arundhati Roy, *War Talk* (Cambridge, MA: South End Press, 2003), 127.

يستند هذا المستقبل إلى حُجج أبرزها إمكانية تحقيقه، التي يقرها المترجمون في مواقع السلطة من خلال ما يرونه ممكناً ومنطقياً وعملياً. فعلى سبيل المثال، يُقال دائماً للفلسطينيين بأن حل الدولتين هو الخيار الوحيد الممكن، ويجب عليهم بالتالي أن يتنازلوا عن حقوق معينة مثل حق العودة، بل إن العنف المعرفي الممارس على الفلسطينيين شائع في الأوساط الأكاديمية والإعلامية والسياسية لإجبارهم على قبول "حقائق" معينة تنفي الشرعية عن مطالباتهم وحقوقهم.

**يُعارض** ريتشارد فولك في كتاباته عن مستقبل الفلسطينيين حُجة إمكانية تحقيق المستقبل في حالة حل الدولتين، ويرى إن هذه الحجة تنطوي على نهايات مسدودة:

... إن أفق الإمكانية تحصر خيارات الفلسطينيين في خيارين: إما الموافقة على جولة أخرى من المفاوضات مؤكدة الفشل وإما رفض المفاوضات وتحمل مسؤولية عرقلة جهود السلام.

يدافع فولك عن تحرير التخيل الأخلاقي والسياسي من خلال الاعتراف بـ "مقتضيات السلام العادل الذي يضمن الكرامة، فإن فعلنا ذلك رأينا ما وراء أفق الرغبة." غير أن التحرر من حدود الإمكانية ليس سهلاً، ولا سيما حين تكون قد ترسخت في قاموس الفلسطينيين وحياتهم اليومية.

### التخيل المعيار عند الفلسطينيين

بالرغم مما سبق، يحاول أفراد ومجموعات صغيرة من فئات المجتمع الفلسطيني المختلفة أن يتخيلوا مستقبلاً بطرق مغايرة ومختلفة. وليس مستغرباً أن الكثير من تلك التخيلات تتركز حول حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة، بغض النظر عما إذا كانوا هم من لجأوا في الأصل.

## "العديد من الأفكار والتخيلات السياسية الراجعة حول المستقبل تجعل من احتواء الفلسطينيين الأصليين وأمن الدولة الاستيطانية همّها الرئيسي."

يُعدّ سلمان أبو ستة أحد كبار الباحثين الفلسطينيين في هذا المجال حيث يُبين في عمله الخرائطي إمكانية العودة من خلال مقارنة مكانية وديمغرافية. يوضح أبو ستة، من خلال تقييمه للأرض والسكان، أن هنالك أرضاً تكفي جميع اللاجئين العائدين بالإضافة إلى المواطنين الإسرائيليين. ويجعل العودة عمليةً متواليةً مكونةً من سبع مراحل مبنيةً على التوزيع المناطقي وخطة بناء المساكن. فهو يتناول مفهوم العودة ضمن خطة عمل ملموسة، وليس بالقول فقط كباقي الفلسطينيين. ومع أن الكثيرين قد لا يتفقون مع العملية التي يطرحها، إلا أن مبادرته تُؤكد وجود طرق يمكن من خلالها تفعيل حق العودة.

**جمعية دار للتخطيط المعماري والفني** هي مشروع آخر يتطلع إلى المستقبل من مقره في بيت ساحور بيت لحم. وهذه الجمعية ثمرة تعاون بين "أفراد محليين ودوليين وبين مهندسين معماريين وفنانين"، وتتناول إنهاء الاستعمار في الضفة الغربية وقطاع غزة من منظور الهندسة المعمارية، بتخيل تفكيك المستوطنات وإعادة الأرض للفلسطينيين.

الحي والأمة، والاقتصادات الأخلاقية والحكم الجائر، والأجور الأعلى وفرص العمل الأجنبية. لقد بات التخيل اليوم أرضية انطلاق للعمل، وليس مهرباً فقط.

يُخرج التخيل، وفقاً لهذا التفريق، من إطار الفكرة المجردة إلى إطار الممكن والعمل (المختلف). وتجدر الإشارة إلى أن تخيل مرحلة ما بعد الإمبراطورية لا يعني العودة إلى الماضي السابق أو العودة، في حالة فلسطين، إلى ما قبل العام 1948، وإنما هو عملية تتحرى سُبُل تفكيك الاستعمار والاضطهاد، وسبل إعادة البناء بعد التفكيك. وهذا هو مشروع إنهاء الاستعمار الذي لا بد أن يقترن بمشروع مقاومة الاستعمار الذي يواجه النظام الاستعماري ويتحدها.

### المستقبل برؤى قمعية

لا تتصف جميع التعبيرات عن المستقبل بأنها تخيل مختلف أو مُفكك للاستعمار. فلطالما نوقشت التصورات إزاء مستقبل الفلسطينيين دون مساهمة من الفلسطينيين أنفسهم أو ضمن أطر عمل أجنبية محدودة، ارتبطت العديد منها أصلاً بفكرة الدولة القومية. وفي الوقت الحاضر، ثمة العديد من الأفكار والتخيلات السياسية الراجعة حول المستقبل تجعل من احتواء الفلسطينيين الأصليين وأمن الدولة الاستيطانية همّها الرئيسي.

إن تأطير إسرائيل/فلسطين على أنهما مجموعتين قوميتين متناحرتين وليس كمشروع استعماري استيطاني يصبُّ في صالح فكرة إقامة "دولتين وفقاً لحدود 1967" باعتباره الفكرة الأنسب والأجدي لمستقبل الإسرائيليين والفلسطينيين. وقد ترسخت فكرة حل الدولتين أكثر حين قبلتها القيادة الفلسطينية ضمناً في خطة النقاط العشر لمنظمة التحرير الفلسطينية الصادرة في 1974، قبل أن تنادي بها رسمياً في أوائل عقد التسعينات من خلال اتفاقات أوسلو التي وضعت جدولاً زمنياً مفترضاً لإقامة الدولة الفلسطينية.<sup>2</sup>

لقد تحوّل خطاب المنظمة وسياساتها بفعل أوسلو من التحرير ومقاومة الاستعمار إلى بناء الدولة في الضفة الغربية وقطاع غزة. وتَسبّب هذا التحول في تغيير المجتمع المدني الفلسطيني الذي أصبح معتمداً إلى حد كبير على رعاية الجهات المانحة الخارجية. وهذا التغيير الحاصل في بُنية التمثيل السياسي والمجتمع المدني ألزَمَ التخيل الجمعي الفلسطيني بأجندة سياسية محددة. وفي هذا الصدد، يطرح سلمانكا وآخرون أسئلةً بلاغية مهمة حول هذا التغيير:

متى أصبح الكفاح المستمر من أجل الأرض والعودة يُصنّف كحالة "خارجة من النزاع"؟ ومتى أصبحت إسرائيل مجتمعةً "صهيونياً سابقاً"؟ ومتى أصبح السكان الفلسطينيون الأصليون في الجليل (على سبيل المثال) "أقليةً إثنية"؟ ومتى أصبح تأسيس السلطة الفلسطينية وما أعقبه من تعزيز الاحتياطات الفلسطينية يرقى إلى منزلة "بناء الدولة"؟

بات التأطير السياسي للكفاح المقاوم للاستعمار مناقصاً لغايته مع تحول التركيز من التحرير الجمعي إلى التركيز على النجاحات الفردية، ولا سيما المكاسب الرأسمالية. إضافةً إلى أن اختزال فلسطين والفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة يُهمّش الفلسطينيين اللاجئين والمشتتين والمواطنين في إسرائيل وكأنهم قضايا ثانوية أو غير ذات أهمية. فتستثني تخيلات المستقبل ضمن هذا الإطار غالبية الشعب الفلسطيني، بل وتعتمد على شروط الكيان الاستعماري الاستيطاني وأبديته المتخيلة. وهذه الدجومة الزائفة قاسمٌ مشترك بين المشاريع الاستعمارية والاستعمارية الاستيطانية كافة، وتضع المستقبل ضمن حدود استعمارية.

2. لا بد من الإشارة إلى أن اتفاقات أوسلو لم تأت من فراغ، بل إن انهيار الاتحاد السوفييتي وتعرض منظمة التحرير الفلسطينية لعزلة متزايدة من الأظمة العربية وخرجها من لبنان إلى تونس ساهمت في التمهيد لهذا التغيير الهائل في الخطاب والاستراتيجية.

يركز الباحثون في هذا المشروع أيضًا على عودة اللاجئين، ويقولون إن "العودة وإنهاء الاستعمار مفهومان مترابطان - فلا يمكننا التفكير في العودة دون إنهاء الاستعمار، تمامًا كما لا يمكننا التفكير في إنهاء الاستعمار دون العودة". تهدف الجمعية إلى إدماج الهندسة المعمارية في المخيلة الثقافية الجمعية للمستقبل. ومع أن جهود التخطيط المعماري الرامي إلى إنهاء الاستعمار محصورة داخل حدود 1967 - وتحديدًا الضفة الغربية وقطاع غزة - لغايات حصر التركيز، فإنها من الناحية الأيديولوجية غير محصورة بالحدود الجغرافية "للأرض الفلسطينية المحتلة"، وإنما تتناول فلسطين بكليتها التاريخية.

## "تطرح تخیلات الفلسطينيين المختلفة للمستقبل روايةً مضادة، يمكن أن ترقى عند اجتماعها إلى منزلة خريطة طريق للتحرير."

تُشارك أيضًا مجموعات مختلفة من الشباب الفلسطينيين المنحدرين من نسل المهجّرين من الأرض الفلسطينية المحتلة عام 1948 في تخیل قراهم المدمرة. يُمثّل المهجّرون ثلث الفلسطينيين المواطنين في إسرائيل، ويقطن الكثير منهم بالقرب من قراهم التي هجّروا منها أجدادهم وأباؤهم في 1948، حيث تمنعهم الدولة الإسرائيلية من العودة إلى أرض أسلافهم بموجب آليات قانونية متنوعة، كالأوامر العسكرية.

وعلى سبيل المثال، تُحافظ بعض المجموعات على وجود مادي في مواقع قراها المدمرة بنصب الخيام وإقامة السقائف، كما في حدث في إقرث وكفر برعم. غير أن السلطات الإسرائيلية لا تفكّ تزييل هذا الوجود المادي باعتباره "غير قانوني" خشية من أن يخلق تحرك الناشطون سابقاً لغيرهم من الفلسطينيين المهجّرين. وهناك ناشطون مهجّرون آخرون قاموا بإعادة بناء قراهم باستخدام النماذج المُصعّرة وبرامج المحاكاة الحاسوبية، وأخذوا في الحسبان عودتهم وعودة أقاربهم الذين فروا إلى بلدان مجاورة في 1948، مسترشدين بمفهوم أبو ستة حول إعداد خطة عمل للعودة.

وهذه ليست سوى بضعة أمثلة تجسد تخیلات للمستقبل، تعرض رواية مضادة، ويمكن أن ترقى عند اجتماعها إلى منزلة خريطة طريق للتحرير. غير أن العديد من هذه المشاريع والمبادرات غير مترابط أو متواصل، ويُعزى أحد الأسباب وراء ذلك إلى التشتت الجغرافي والاجتماعي والسياسي الذي يعيشه الشعب الفلسطيني والذي يعوق قدرتهم على التوصل إلى إجماع سياسي بشأن التحرير. ولهذا فإن النضال لا يقتصر على التخیل وإنما على التخیل بطريقة جماعية.

**كتب** غاري يونغي في مقالته الأخيرة لصحيفة الجارديان: "تخیل عالمًا تنجح وتزدهر فيه، عالمًا لا قرائن على وجوده. ثم قاتل لأجله." واليوم، حين لا تزال تصورات المستقبل تُرسم للفلسطينيين بالنيابة عنهم - كالتصور الأخير الذي **وضعت إدارة ترامب** - لا بد من النضال من أجل مستقبل مبني على تخیلات الفلسطينيين الجمعية.



«شبكة السياسات الفلسطينية» شبكة مستقلة غير حزبية وغير ربحية، مهمتها نشر وتعزيز ثقافة النقاش العام حول الحقوق الانسانية للفلسطينيين وحقهم في تقرير المصير، وذلك ضمن إطار القانون الدولي وحقوق الإنسان. يلتزم الأعضاء والمحللون السياسيون في الشبكة المناقشة الجدية للقضايا المطروحة. يمكن اعادة نشر وتوزيع هذه الملخصات السياسية شرط ان يتم الاشارة بوضوح الى «الشبكة»، «شبكة السياسات الفلسطينية»، كمصدر اساسي لتلك المواد.

لمزيد من المعلومات عن «الشبكة»، زوروا الموقع الالكتروني التالي: [www.al-shabaka.org](http://www.al-shabaka.org) او اتصلوا بنا على البريد الالكتروني التالي: [contact@al-shabaka.org](mailto:contact@al-shabaka.org) الآراء الفردية لأعضاء الشبكة لا تعبر بالضرورة عن رأي المنظمة ككل.

يارا هوارى هي الزميلة السياسية الأقدم للشبكة في فلسطين. نالت درجة الدكتوراه في سياسة الشرق الأوسط من جامعة إكستر، حيث درّست مساقات مختلفة لطلاب مرحلة البكالوريوس، ولا تزال زميلة بحثية فخريّة في الجامعة. يُركز عملها الأكاديمي على دراسات السكان الأصليين والتاريخ الشفوي، وهي مُعلّقة سياسية تكتب لوسائل إعلامية عديدة مثل ذي جارديان وفورين بوليسي والجزيرة الإنجليزية.